

فنانة مغربية تبحث عن لون غير مكتشف عبر طقوس صوفية

لبابة لعلاج فنانة ترسم ما لم تستطع كتابته وتكتب ما لم تستطع رسمه



الحركة تتلون بالأضداد



اللوحه تكثيف للدلالة وحضور طاع للرمزية

لوحات شعرية تخترق التفاصيل وتعيد ترتيب الفرد بالذات في مكان حيث لا مكان، في زمن حيث لا زمن".
تكتب الفنانة "أحاسيس جديدة تدعوني لرؤية الواحد في مركز لوحتي. أنصهر مع الألوان الصوفية، ومن موقع الملاحظة أصبح الملاحظة التي تمكن الملاحظ من الانطلاق مجدداً بلونه الخاص".

الفنانة تكسر أفق الانتظار والأبعاد التصويرية، إذ تجعل من غنائية الصباغة مطية لتركيب "شذراتها" وأفكارها وما عاينته وعاشته

لون خاص إذن ما تبحث عنه الفنانة لبابة لعلاج في أعمالها. لون غير مكتشف بعد، أو لعله غير مرئي، يوجد في أعماق الذات: ذلك الغريب الذي فينا، نقبضنا الذي نحمله معنا أينما ارتحلنا. وهو الأمر الواضح في صباغاتنا التي تختلط ألوانها وتمزج وتتعدد، لتشكل حسناً نرايس، والقصيدة لوحة هاهنا، بالكشف عن نفسه.

ما هي "أفكار شاردة"، فهي لا تتجمع وتتحد إلا من خلال الجمع بين فعل القراءة وفعل النظر، من خلال الترحال بين عوالم اللوحه (الشكل واللون) وعوالم النص (الكتابة واللغة). وعموماً، يخبرنا الناقد الفني حسن لغزش "حاول نص لبابة لعلاج تطبيق المقياس (بارومتر) على الروح كما قال جاك روسو، مسجلاً تغييرات الحالة الداخلية التي تنكسر فيها كل التغييرات الخارجية. في ارتباط وثيق، الحياة والفكر والكتابة أدوات تجربة حيث دراسة الأنا والآخرين في فرادهم وغرابتهم هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ معرفة الإنسان الحقيقية، وارتقاء مغامرة داخلية تساوي كل الرحلات".

ونحن هنا إزاء رحلات ذهاباً وإياباً بين النص المكتوب واللوحه المرئية، "لوحة أنيسة من بعيد، يخبرنا الناقد حسن نرايس، والقصيدة لوحة هاهنا، بالأسوان تارة، وبالأسود تارة أخرى،



رقص وشطح صباغيان

وصوت الصوفي الذي يعلن عن ذاتيته مركزاً لحلول الإلهي فيها: اتحاداً وحلولاً؛ ومن ثم فإن الصوفي حدائي بامتياز؛ "مفكر" في الوجود يعلي من "أناة". لهذا تقول الفنانة "أسيرة أناي أشبعت الرغبات الأدبية، قررت التعرف أكثر على نفسي". فتصير الذات هي الغريب واللامعروف المبحوث عنه، المفكر فيه وعبره "أنا الملاحظ والملاحظ معاً". وتلمس هذا البعد البحتي حتى في الأعمال الصباغية، التي يقدّر ما تنطلق من ذاتية الفنانة تسعى للكشف عن المغرب الذي يسكنها، عن اللامرئي فيها. ولأن الصوفي مرآة للوجود تغدو الأعمال مرآة لذاتية كل مشاهد يغرب في العمل وهو يلجه تماملاً وحالماً.

الحبل السري

إنّ الكتاب وأعمال المعرض متكاملان، مرتبطان في ما بينهما بحبل سري جذموري خفي، لا يمكن إدراكه إلا بإمعان النظر والقراءة المكثفة. إذ يقدّر

عن البعد الصوفي وعملية التفكير التي تفرّضها الأعمال الفنية والفنّ معاً. يضعنا الدكتور عبدالله الشيخ في ترجمته إلى العربية لهذا الكتاب، الذي خطّ بالفرنسية، أمام نصوص نابغة من أعماق الذات، نابغة من التفكير في الوجود والاعتراب. فالكاتبه الصوفية، وهي لغة هذا الكتاب، تبتغي منا أعمال التاويل، "جاعلين من القراءة فعل حب واقتنان بالجمال، وفعلًا لتعميق الوعي بالاعتراب والنزوع نحو اكتشاف العمق البدائي للإنسان الذي ينتزعه من الرتابة والتكرار اليومي، أي حركة البحث عن المجهول، عن الغريب، عن اللامعروف" ("الكتابة والتجربة الصوفية" لمصطفى عبدالحق). فأي مجهول وأي غريب ومن/ ما اللامعروف الذي تسعى للبحث عنه لبابة لعلاج؟ "يبحث في كل مكان عن سبيل ساعدني على الترفع والتفوق على ذاتي"، تخبرنا المبدعة. وهنا تلحظ بقوة صوت "الأنا"، صوت الذات، وهو صوت الدائنة بامتياز،

ليست العلاقة بين الفن التشكيلي والكتابة جديدة، بل إن أغلب الفنانين التشكيليين يؤلفون ما لا يقال في أعمالهم، فيما نجد أيضاً بعض الكتاب الذين بدأوا رسامين أو حاولوا الرسم، لذا فالمزج بين الكتابة والإبداع التشكيلي يمثل تلاقياً خلاقاً، لاسيما كما نراه في عوالم الفنانة التشكيلية المغربية لبابة لعلاج التي مهدت أرض الصوفية والفكر الصوفي وتجلياته اللقاء بين عالمي الكتابة والرسم عندها فكانت أعمالها نوافذ على مجاهل روحها هي وأرواح الكون التي تحاول رصدها بشطحات ريشتها المثقلة بالأفكار.

ما يمنحه تاويلًا مضاعفاً، إذ إن "الحركة تتلون بالأضداد" لديها، كما نفصح عن ذلك في كتابها. إلا أن هذا التضاعف يوجد ضمن المنجز لا لدى المقلّي، ومن هنا يكتسي عمل لعلاج غناه وتعدد. تقول الفنانة في كتابها "أنا تلك التي أسعى إليها، أستغنى أشكالي المتعددة في اللامنتهي".

تكسر الفنانة أفق الانتظار والأبعاد التصويرية، لكنها لا تقيم عند أي تجريد مطلق، إذ تجعل من غنائية الصباغة مطية لتركيب "شذراتها" وأفكارها، ومقروئيتها وما عاينته وعاشته، في أعمال صباغية تقدم نفسها للنظر على أنها "نصوص صوفية". لهذا في نظرنا قد نجحت في اختيار مراكز لعرض أعمالها "الشاردة"، داخل فضاء "تنسجم" فيه روائح البخور القديمة التي كانت تستحوذ على أجواء المكان. وتستشعر فيه ديب خطوط رجال التصوف، والرجال السبعة، الذين زاروا "المقام" أو سكنوه.

تكتب لعلاج بالكيفية التي ترسم بها، إنها بهذا المعنى ترسم ما لم تستطع الكتابة قوله وتكتب ما لم تستطع الصباغة رسمه. غير أنها تكتب وترسم صوفياً، إذ تحضر في أعمالها الصورة الرمزية وتكثيف للدلالة. وهذا لهو ما تنطلق منه كل الكتابات الصوفية للتعبير عن تلك الحالات اللامرئية للإنسان وفيه، وعن الشطحات التي يستحيل قولها قولاً بسيطاً مباشراً.

وبالمقابل فاللوحة لدى لعلاج هي تكثيف للدلالة وحضور طاع للرمزية، ما يجعل أعمالها المعروضة خاضعة لجدلية الظاهر والباطن، جدلية صوفية بحتة، يفرّضها حضور الرمز من حيث إنه "حضور الكلام الذي يعطي ظاهراً ما لم يقصده قائله"، وهو المعنى الذي يسقط حتى على الصور الرمزية الصباغية.

تكتب الفنانة "أنت، يا نار المخاوف، بدأت تشعّرين بالبرد الشديد حتى اعتقدت أنك ذبت جليداً!". بالتالي، فأعمال لعلاج كتابة وصباغة هي بنية موحدة. تعمّل التفكير بالتصوف وعبره. فإن كانت الكتابة (في البعد الصوفي) لا تنتهي عند المؤلف، بل تستمر وتتقوى عند كل قراءة، فيما يشبه لذة النص الباريتية.. فالأمر يقاس عليه أيضاً على المستوى التشكيلي عند لعلاج، إذ عند كل عملية "نظر" تعرف اللوحة حياة بديلة، أو بمعنى آخر قراءة مغايرة، ما يمنحها لذتها وحيوانتها المتعددة. فنقرأ في الكتاب: "يمكن لتجربتي أن تساعد الآخر على رؤية بجلاء، مع احترام اختلافها، الأمر برق في سماء داكنة".

البحث عن الغريب

لا يمكن إذن قراءة كتاب "أفكار شاردة" للمبدعة لبابة لعلاج دونما الوقوف عند مجموعة أعمالها الأخيرة التي احتضنتها جدران "دار الشريعة" العتيقة، وأيضاً لا نستطيع ذلك بمعزل

عز الدين بوركة
شاعر وباحث جمالي مغربي

ما الفن إن لم يكن تفكيراً، إمعاناً في الوجود وتأملاً الموجود. بل إن مهمة الفن تكمن في التفكير، حيث إن "الفن يفكر".

فإن كان الكاتب يستعين بالكلمات، فالفنان يستعين بالصورة، وكلاهما أداتان للتعبير عما يفكر فيه المبدع/ الإنسان/ الفرد.

والفن إن يفكر فهو يتأمل الوجود بوصفه حضوراً مستداماً في الزمن ومتحركاً فيه. والعمل الفني خاضع لسلطة الزمن وتغيراته، أي حركية "الحاضر"، ما يهبه قراءات متحركة ومتغيرة ومتطورة مع الزمن.

وإن كان المنجز ابن ثقافة ما يغمس فيها، ويتجلى من خلالها، فيفعل حركية الزمن يكتسي حضوراً متعددًا، يجعله غنياً بدلالات تتراكم وتتعدد مع كل قراءة جديدة، ما يجعله يدخل في عملية تفكير موضوعة لها ومُنْتَجا ومولداً للأفكار، من حيث إنه دفعة إلى "الرغبة في التفكير"، بمعنى أدق إنه "يفكر".

أنا أصالة الصوفية

"اخترت لحظة من حياتي كي لا أرى سوى جزء من الأشياء في شكل شذرات" تقول الفنانة التشكيلية والكاتبة المبدعة المغربية لبابة لعلاج في كتابها الجديد. من هذا المنطلق تلج عوالم لبابة لعلاج، إذ في جو من الروحية الصوفية القادمة من عمق التاريخ المغربي، وسط رياض "دار الشريعة" بمراكش الذي يرجع زمن تشييده إلى القرن 16 ميلادياً، أقامت هذه الفنانة المولعة بعوالم الصوفية معرضها "أفكار شاردة".

أعمال لبابة لعلاج يحق أن نصفها بأنها تفكير بالتصوف، تفكير في حالات الوجود حاضراً، لكن ليس عبر المباشرة

و"أفكار شاردة" هو العنوان عينه الذي يحمله كتابها الصادر حديثاً، والذي تم تقديمه وتوقيعه ضمن فعاليات المعرض الفني. تعمل لعلاج على إظهار تلك العملية التفكيرية التي يقوم بها الفن من خلال العمل الفني، لكن من زاوية صوفية صرفة، إذ يقدّر ما يفكر المنجز لديها، فهو يتخذ أفكاره من خلال تلك الشطحات والجدليات والمقولات والوقفات والمقامات الصوفية التي تبدو شاردة منزوعة من سياق غرائبي ورمزي وذاتي، يجبرنا على أعمال التأمل والتفكير والتحليل وحتى التفكير.

فيقدّر ما تقرب من معانيها ببتعد، ويقدّر ما نطّل أنسا أمسكناها من تلابيبها تنقلت من بين أصابعنا، كما ينسكب الماء.

تقول في كتابها "أنا أصالة الصوفية (...). أعيش الجذبة التي تخلص بالرقص ما يفرض الرقص".

الكتابة بالصباغة

أعمال لبابة لعلاج يحق أن نصفها بأنها تفكير بالتصوف، تفكير في حالات الوجود حاضراً، لكن ليس عبر المباشرة أو أعمال التمثيل والاستعانة بأي منظورية كانت، قد توطر المنجز وتجبره على أن يُفصح عن مكوناته دون عناء أو تفكير. إذ عبر كتابها الصباغية ومساحاتها اللونية وتداخلات الأشكال لديها، في رقص وشطح صباغيين، تجبر المقلّي على أن يتأمل العمل من زوايا متعددة،

